الفصل الأول

بعض نتائج البحوث النفسية

قال لى صديق من العلماء مرة : « إن مكان الاكتشافات الجديدة هو المسائل التى لم تدخل تحت قاعدة » . وذلك أنه فى جانب كل ما نظم وسلم به من حقائق يوجد بعض مسائل استثنائية ، وحوادث صغيرة فى نفسها غير داخلة تحت قاعدة ، وقليلا ما يصادفها المرء ، وغالباً ما يتجاهلها حين يصادفها . والمثال الأعلى للعلم هو أن يكون نظاماً من الصدق مستقلا بنفسه . وجمال كل علم ، بالنسبة لمريديه المقلدين له ، هو أن يلبس هذا الثوب المثالى . ولذلك يقدم كل فرع من فنوننا المختلفة عنواناً خاصاً لكل حادثة تدخل ضمن دائرة اختصاصه ؛ ولأن كثيراً من الناس يفقد الحرية فى التفكير ، فإنه ، عند ما يدرك نظاماً من هذا النوع منسجماً فى نفسه ، لا يكاد يتصور غيره من النظم المخالفة . فكل مخالف مخالفة كلية أو جزئية لا بد أن يكون فى نظره محالا . وكل حادثة لا يمكن أن تخضع لهذا النظام فهى ، عنده ، أمر محال لا بد أن يكون خطأ . وعلاوة على هذا ، عند ما تكون الأخبار المتعلقة بمثل هذه الحوادث ، كما هو الشأن غالباً ، غير واضحة ، وعند ما تبدو هى نفسها غرائب وعجائب لا أهمية لها ، فإن المرء يهملها ويكون مع ذلك ضميره العلمى راضياً . أما النوابغ فهم الذين يجهدون أنفسهم ولا يستريحون حتى يروا هذه الأمور المستثناة داخل الحظيرة وضمن القاعدة . فلقد كان كل من غاليلو Galileo ، وكلفان Calvin ، وفرينل Fresnel ، وبوركينيه Purkinje, Purkyné ، ودارون Darwin ، فى تعب وشقاء من أمثال هذه المسائل

غير المهمة . وكل من يلاحظ تلك الحوادث الغريبة فإنه يجدد من معلوماته . وعند ما تجدد المعلومات ، تكون القواعد الجديدة ، غالبا ، متأثرة بصوت هذه الغرائب والاستثناءات .

لم يحتقر العلم على العموم شيئا من تلك البواقى غير المنسقة كما احتقر تلك المسائل الروحية الغامضة. وليس لعلم النفس على الخصوص تعلق بتلك الظواهر. إذ أن علم النفس المحافظ يعرض عنها. وأما الطب فينفيها بالكلية ، أو يقول إنها من عمل الوهم والخيال؛ وذلك تعبير لا يراد منه إلا الرفض أيضا . ولكن الظواهر نفسها موجودة ومنتشرة على صفحات التاريخ . فكلما تصفحت صحيفة وجدت أشياء مدونة تحت اسم عيافة ، إلهام ، مس الجن ، ظهور الأشباح ، غيبوبة ، وجد ، شفاء بالرقى والتعاويذ ، شفاء خارق للعادة ... وما إلى ذلك . ونجد أيضا اتصاف بعض الأشخاص بقوى غريبة تؤثر على ما حولهم من أفراد أو من أشياء . والمشهور أن نظرية « الوساطة » قد بدأت فى روشستر Rochester من أعمال نيويورك New-York ، وأن مِسْمَر Mesmer هو الذى بدأ نظرية « المغناطيسية الحيوانية » ؛ ولكن نظرة واحدة للتاريخ وللذاكرة وللسجلات الرسمية وللقصص العامة أو لكتب القدامى ، تكفى لتبيين أن هذه الأشياء كانت موجودة فى كل العصور الغابرة بالكثرة التى هى عليها الآن . فكثيرا ما نعثر نحن الذين نشأنا فى الجامعات وتتبعنا تيارات الثقافة العالمية على بعض الجرائد القديمة أو بعض المؤلفات الضخمة التى كتبها أشخاص لم نسمع بهم فى دوائرنا ، مع أن قراءهم كثيرون ؛ ولا ندهش إلا قليلا حين نعلم أن هذه المجموعة من الناس لا تعيش جاهلة بنا وبآلهتنا فحسب ، ولكنهم يقرأون أيضاً ويكتبون ويفكرون فعلا من غير تفكير فى قوانيننا وفى سلطاتنا . وهناك جماعات أخرى لا تقل عددا عن هذه الجماعة تحتفظ بالتعاليم السرية الغامضة وتنقلها من جيل إلى جيل ؛ ولكن العلم الأكاديمى

لا يعنى باعتقاداتهم وآرائهم ، إلا كما تعنون أنتم أيها القراء المثقفون بآراء العوام ومعتقداتهم التى تقال بقصد التسلية وقت السهرات .

هذا ، وليس فى مقدور عقل واحد من العقول أن يدرك جلية الحقيقة . فخير ناقد يفوته بعض الشىء ، لا على طريق المصادفة والعرض ، بل بعد أن يكون قد نظم ورتب، ذلك لأننا نميل ولابد لنا من ذلك . ويستحيي كل من العقل الأكاديمى العلمى والعقل الصوفى من مواجهة حقائق الآخر، كما يهرب كل منهما من روح الآخر ومن مزاجه . ولم توجد الحقائق إلا لهؤلاء الذين لهم أفكار تشابهها وتقرب منها. فإذا ما وجدت هذه الحقائق واعترف بها، فإن العقول العلمية الناقدة أولى بشرحها من الأخرى. ولكن من ناحية أخرى يبين لنا التاريخ الإنسانى أن العقل العلمى بطىء جداً فى الاعتراف بوجود الحقائق التى لا تبدو منسجمة مع قواعده العامة ، أو مهددة بأن تخرج من النظام المترف به . يحدث كل من علم النفس وعلم وظائف الأعضاء والطب ، أنه كلما كان هناك جدل بين النظرة العلمية والنظرة الروحية ، فإن النظرة العلمية كانت تكون على حق فيما يتعلق بالنظريات ، والنظرة الروحية على حق فيما يتعلق بالواقعيات . وأقرب الأمثلة وأشهرها من هذا النوع هو المغناطيسية الحيوانية ، التى اعتبر الطب حقائقها مجموعة من الكذب ، حتى وجد التنويم المغناطيسى وعضدها ، ولما أصبحت من العموم والذيوع بحيث يخشى خطرها صدر قانون يحرم مزاولتها إلا لهؤلاء الذين حصلوا على دبلوم فى الطب . وهكذا الشأن فيما يتعلق بالمناعة الطبيعية ضد الأخطار ، وبالعلاج الطبيعى ، وبالعلوم الإلهامية : فلقد وصمت هذه بالأمس بأنها خرافات ، ثم بحالات من الهستيريا ؛ ولكنها اعتبرت الآن حالات يمكن أن يكون لها أساس فى الواقع .

وعلى الرغم من أن ذلك الأسلوب الغامض من التفلسف غير مستساغ ، فلا مراء فى أنه مصحوب بمقدرة خاصة على مواجهة نوع معين من التجارب. إننى وجدت نفسى مضطراً إلى هـذا الاعتراف فى السنوات الأخيرة الماضية ؛ وإنى أعتقد أن كل من يفطن إلى مثل هـذه المسائل التى يعتز بها الروحيون ، ويفكر فيها على نحو علمى ، فإنه يكون فى خير مركز يسمح له بخدمة الفلسفة . وإنه لفأل حسن أن نعلم أن كثيراً من العلماء فى مختلف الأقطار يتجهون الآن هذه الوجهة . إن جمعية البحوث النفسية عنصر من العناصر التى جمعت بين العلم وبين تلك النظرة الباطنية فى انجلترا وفى أمريكا ؛ ولأننى أعتقد أن هذه الجمعية تؤدى وظيفة محدودة ، ولـكن على غاية من الأهمية فى تنظيم المعارف الإنسانية ، فيسرنى أن أقدم موجزاً عن أعمالها لمن لم يعرفها من القراء .

يشيع فى الجرائد وبين العامة أن القدر المشترك بين هـذه الجمعية هو البساطة العقلية وسرعة التصديق التى تدل على غرارة ، وأن المبدأ الفعال فيها هو ذلك المرض المنتشر من التعجب والارتياب . ولـكن نظرة واحدة لأعضائها تكفى لدحض هـذا الرأى . فالرئيس هو الأستاذ سيجوك Henry Sidguick ، المعروف ، بسبب أعمـاله الأخرى، بأنه أكبر ناقد عنيف، وأكثر العقول فى انجلترا تشككا . وأحد وكلائها هو ذلك النابه البصير آرثر بلفور Arthur Belfour ، ونائبها الثانى هو ذلك البصير أيضاً الأستاذ لنجلى T. P. Langley سكرتير معهد Smith Sonion . ومن أعضائها العاملين رجال مثل الأستاذ لودج Lodge العالم الإنكليزى فى الفلسفة الطبيعية، والأستاذ ريشيه Richet العالم الفرنسى فى علم وظائف الأعضاء ؛ ونجد بين الأعضاء كثيراً من من العلماء الذين حازوا شهرة عالمية بسبب مقدرتهم العلمية. حقاً ، إننى إذا سئلت عن المكان الذى توجد فيه القوة العقلية جلية مزدهرة ، ويُتحرى فيه عن أسباب الخطأ والانحراف

فإنى لا أشير إلا إلى هـذه الجمعية وبحوثها . وإن النظام الصارم الذى استعمل من سنوات مضت للبرهنة على حالة خاصة وهى « الوساطة » أدى إلى فصل عدد من الروحانيين من الجمعية. فلقد رأى كل من ولاس، وستوينتون موسى A. R. Wallace, Stointon Moses وآخرون ، أنه إذا ما تمسك بهذا المعيار الصارم من البرهنة فلا يمكن أن يقبل كل ما اعتمد على مجرد البصر الحسى من التجارب .

نشأت هـذه الجمعية عام ١٨٨٢ بجماعة من المثقفين ، نجد من بينهم الأساتذة : سدجويك ، بارت ، ستوارت ، هتون ، ويدجوود ، جيرنى ، مايرز Sidguick W. F. Barrett, B. Stewort, R. H. Hutton, H. Wedgwood, E. Gurney F. W. H.Myers . وقدكان لهم غرضان : أولا عمل تجارب منظمة على الأشخاص المنومين وعلى الوسطاء والإبصار المغناطيسى وماشا كل ذلك ؛ وثانياً جمع معلومات متعلقة بظهور العفاريت والخيالات ، وبالمنازل المأهولة بالجن ، وبحوادث أخرى من هذا القبيل أخبر عنها بطريق العرض، ولـكنها ، بطبيعتها الشاردة ، لم تخضع لقانون موضوع . يقول الأستاذ Sidgwick فى كلمة الافتتاح إن اختلاف الناس حول هـذا الموضوع لفضيحة للعلم وعار عليه ، فنجد فى جانب ما يمكن أن يسمى بالأراء الفنية ازدراء مطلقا معتمدا على أدلة ذهنية محضة ، بينما نجد يقينا من غير بحث من جانب هؤلاء الذى يدعون أنهم اتصلوا فعلا بهذه الحقائق .

قد قامت هذه الجمعية بمجهود عظيم وعمل كبير فى جمعها لما تعلق بمثل هـذه الحوادث من أخبار ؛ ولـكن ، كجمعية تجريبية ، لا يمكن أن يقال إنها حققت كل آمال منشئها . ويرجع هذا إلى عاملين : أحدهما أن الموضوعات التى يمكن إجراء التجارب عليها مثل البصر المغناطيسى موضوعات قلائل لاتوجد إلا فى فترات بعيدة ؛ وثانيهما أن التجارب عليها تستدعى زمنا طويلا ، وأن يكون بين كل تجربة

وأخرى فترات مختلفة ، برجال هم مشغولون فعلا بكثير من الأعمال الأخرى . ولم تبلغ الجمعية بعد من الغنى حداً يسمح لها بأن تفرغ بعض الخبراء للقيام بمثل هذا العمل الذى لا ينقسم. ولقد كان موت المأسوف عليه Edmund Gurney ، الذى كان عنده فراغ أكثر من غيره ، خسارة لا تعوض . ولكن ، حتى إذا لم يكن هناك تجارب أصلا ، ولم يكن للجمعية إلا جمع الأخبار حول ما تفرق من ظهور الخيالات وغيرها ، فإنى أرى أن عملها ضرورى للبحوث العلمية . وإذا كان أحد القراء ، الذين يؤمنون بأن الكثير من الدخان لا بد أن يكون ناشئاً عن نار ، قد قرأ البراهين المستعملة للدلالة على وجود قوة غير طبيعية ، فإنه سيدرك مغزى ما أقول . فقد كتب من ذلك الشيء الكثير ، ولكنه غير قاطع فى الدلالة لهذا الصدد . والحقائق التى يمكن أن تقتبس كثيرة جداً ، ولكن البيانات حولها غير كاملة وقابلة للنقض ، حتى أن قصارى ما تؤدى إليه هو أن تدع للعقل بعض الأمل فى إساغتها .

على أن الجمعية لا تقتصر على جمع الأخبار ، ولا تُحكّم فى الدلالة كمية الأخبار المجموعة فحسب ، بل تجرى عليها تحليلا علمياً . فتختبر الشهود اختباراً دقيقاً كلما أمكن ذلك ، وتبحث عن كل ما قد يكون هناك من حقائق إضافية بحثاً دقيقاً ، حتى تظهر القضية واضحة لكل من ينظر إليها ويظهر وجه الدلالة فيها . وإننى لم أر أحداً اختبر الأدلة الشاهدة على ماوراء الطبيعة كما اختبرتها هذه الجمعية . وذلك يجعل المجلدات التى ظهرت للجمعية وحيدة فى بابها ؛ وإنى أعتقد أنه كلما ازداد أفق الاطلاع على هذه المسائل على مر الأيام فإن أعمال الجمعية ستكون أضبط ما قيل حول هذه المسائل التى حكم عليها حتى اليوم بالغموض . ولن يعرف قيمة جمع مثل هذه المسائل غالباً إلا الأجيال المستقبلة . وإن الشبان من طلاب علم طبائع البشر وعلم النفس ، الذين سيكونون رجال الغد ، سيشعرون أنه كان من العار على العلم أن يترك مجموعة

كبرى من التجارب الإنسانية كهذه مترددة بين تقاليد غامضة معتقد فيها من ناحية وبين نفي جازم من ناحية أخرى ، وألاّ يكون هناك من يرغب أو من تكون له المقدرة على بحث هذه المسائل بصبر ودقة . وإذا عاشت الجمعية فترة من الزمن كافية لأن يعرفها الجمهور ، وإذا أخبر الجمهور الجمعية بكل حادثة من حوادث ظهور الطيف والخيالات أو بالمنازل أو الأشخاص الذين يطرأ عليهم من الحالات ما لا يمكن تعليله، فسيتكون عندها مجموعة من الحقائق تكفي لوضع قواعد مضبوطة . فيجب على مساعديها أن يعتقدوا أن واجب الجمعية الآن هو أن تعمل على أن تعيش وأن تحقق من وظيفتها الأولى التي هي تسجيل الحقائق الآن فحسب ، ولو أنها قد لا توصل إلى نتيجة قاطعة. فكل جمعياتنا العلمية بدأت على هذا النحو المتواضع .

ولكن لا يقدر أحد أن يتقدم تقدماً محسوساً في الموضوعات العلمية بمجرد تنظيم وتقنين. ولا يصح كذلك أن يعزب عن البال أن الجمعيات قد تقدر على مساعدة النوابغ ، ولكنها لا تقدر أن تحل محلهم. وإن مقارنة بين الجمعية الرئيسية وبين فرعها الأمريكي لتوضح هذا . فلقد وضع النواة في إنجلترا جماعة من النبغاء المتحمسين للفكرة ؛ وأما هنا ، فلم يظهر تقدم ما حتى استدعى هدجسون Hodgson من أوروبا . وقد يكون السبب الرئيسي الذي احتفظ بوحدة الجمعية وبقوتها في انجلترا هو تلك الموهبة الخارقة للعادة التي امتاز بها الأستاذ سدجويك من القدرة على اكتساب ثقة الجماعات المتباينة . فقليلا ما تجتمع تلك الصفات من الاهتمام البالغ بالنتائج مع الحيدة المطلقة في بحث المقدمات في واحد من الناس كما اجتمعت فيه . ولقد كان إصراره العنيف على أن كل جلي يمكن أن يكون أكثر جلاء مبعثاً لطمأنينة موهن العزم ضعيف الإرادة ، وكان عجزه الطبيعي عن أن يستنتج الفطير من النتائج مقوياً لقلوب هؤلاء الذين يخشون أن يكونوا من المخدوعين . وأما زوجه فكانت خير حليف له لما اتصفت به من قوة نادرة في التريث

فى الحكم ، ومن رغبة حادة فى استعمال قوة الملاحظة ومن قدرة على إجراء التجارب على الأفراد .

وأما إدموند جيرنى فهو العامل فى الجمعيـة كما قرر وقت نشأتها . وهو رجل نادر الوجود من حيث مواهبه وعواطفه . وعلى الرغم من أنه كان يئن دائماً من كثرة أعبائه مثل كرلايل Carlyle فقد أظهر قوة عظمى فى إنجاز المهمات وفى القيام بما تعيابه القوى الأخرى من أعمال . وأكبر برهان على ذلك هو كتاباه الضخمان المسميان خيالات الحياة (Phantasms of the Living) ، واللذان جمعا ونشرا فى ثلاثة أعوام. وعلاوة على هذا ، فقد كانت له غريزة فنية جميلة. وكان مجلده الضخم المسمى قوة الصوت «The Power of Sound» أهم كتاب ظهر فى اللغة الإنكليزية حول علم الجمال . وكان له مع ذلك قلب رحيم وقوة عقلية ميتافيزيقية نادرة، كما يشهد بذلك كتابه «Tertium Quid»[1]. وأما مايرز Frederick Myers المعروف بأنه من خيرة كتاب الرسائل فى انجلترا فهو نابغة الجمعيـة ، وسأتحدث قريباً عن شىء من أعماله النظرية . وأما الدكتور هدجسون Hodgson السكرتير الأمريكى فقـد وهب اتزانا عقليا من الندرة فى بابه مثل ندرة سدجويك فيما اتصف به . إنه كان مقتنعا بحقية كثير من المسائل المسماة بالمسائل الروحية ، وكان ذا مقدرة غير عادية فى تعرف مصادر الغلط وتميزها . وإنه لمن المحال أن تعرف هل يرضيه أن يهدم ما قدم لاختباره من حالات أو أن يبرهن عليها.

وإنه ليحق لنا الآن أن ننظر نظرة عابرة إلى بعض جزئيات من هذه الأعمال . شُغل العامان الأولان بالتجارب حول معرفة ما فى الضمير. وكان أول هذه المجموعة من التجارب

---

(١) يعنى به تلك القوة النفسية الكامنة فى الإنسان التى تغاير كلا من الجسم والعقل والتى تربط العقل بالحقيقة .

تجارب مع بنات لقس يسمى كريرى Creery . فقد جعلت هاتان البنتان كلا من ستيوارت وبارت ومايرز وجيرنى وبلفور يعتقد بأن لهما قوة خارقة فى حدس الأسماء والموضوعات التى يفكر فيها الأشخاص الآخرون . ولكن بعد عامين ، اكتشف كل من جيرنى وزوجة سدجويك أن البنتين كانتا تشير إحداهما إلى الأخرى . ولو أنه من الحق أن يقال إن الإشارة كانت غير ممكنة فى كثير من الحالات الأولى ، إلا أنه ربما يشك فى وجودها فى بعض الحالات الصادقة . لذلك كان من الحكمة ، كما فعل جيرنى ، ترك المجموعة كلها والسماح للقارىء بأن يشك فيها . ويظهر أن كثيراً من نقاد الجمعية لم يسمع بشىء من أعمالها غير هذه الحالة. ولكن هناك تجارب أخرى مع مايجاوز ثلاثين شخصا . فلقد أجريت التجارب على ثلاثة أشخاص لمدة طويلة فى السنتين الأوليين : كان أحدهم G. A. Smith ، وكان الأخران امرأتين من ليفربول تعملان عند Malcolam Guthrie

ولقد اعترف كل من ساهم فى هذه التجارب بأنه لم يكن هناك مجال ماللغش والخداع وبأن نسبة كبرى من الإجابات الصحيحة عما يشغل ذهن الشخص الآخر من كلمات أورسوم أوفكر لايمكن أن توصف بأنها مجرد مصادفة . ولقد كان شهود هذه التجارب مقتنعين جميعا بأنه لازيف فيها ، وبذا أصبح « تجاوب الأرواح » معتبرا فى أعمال الجمعية وفى كتاب جيرنى فرضا صحيحا يمكن أن تبنى عليه فرضيات أخرى . ولكن لا لوم على القارىء حين يطلب على تلك الثورة فى الاعتقاد أدلة أكثر دلالة مما قدم حتى الآن. وأما حدس الصور فقد تسمح لنا الأيام بإجراء تجارب ناجحة فيه. ولكن مادمنا لم نصل إلى هذا الحد فليس لنا إلا أن نشير إلى أن هذا الموضوع يمكن أن يعضد باللاحظات التى تؤيد ماشابهه من ظواهر مثل الإبصار المغناطيسى ، أو مايسمى اختبار الوساطة . إذ يدخل فى الجنس العالى أنواعه وتتصف بصفاته .

ولنبدأ بالتحدث عن مقالات جيرنى فى التنويم المغناطيسى . يُعنى بعض هذه المقالات بتحليل حقائق قديمة أكثر من عنايته بالبحث عن حقائق جديدة . ويدعى جيرنى أنه تأكد من صحة ظاهرة التنويم المغناطيسى فى أكثر من شخص وقدأجريت التجارب على هذا النحو : كان بين المنوِّم والمنوَّم ستار كثيف يمنع أن يرى أحدهما الآخر وكانت يدا المنوَّم مخترقتين ذلك الستار فى حين أنه كان مشغولا بالمحادثة مع شخص آخر . فلما أشار المنوِّم بإصبعه إلى أحد أصابع المنوَّم استجاب له هذا الإصبع وحده ، فتصلب أو تخدر . قد يكون شرح هذه الظاهرة عجيبا ، ولكنها صحيحة فى نفسها ، كما شاهدتها بنفسى ، ولم يكن فيها غش ولا تدليس .

ولقد ظهر من تجربة أخرى قام بها جيرنى إمكان تأثر عقل الشخص الخاضع تأثراً مباشراً بعقل الشخص القائم بأعمال التجارب . وأما استجابته لعقل ثالث فتوقفة على السماح النفسى الذى يوحى به إليه القائم بأعمال التجارب أو عدم سماحه له . ومن الطبيعى أنه كان قدعمل كل مافى الإمكان لإزالة مصادر الغش والخداع فى كل هذه التجارب . ولكن أهم ما قدمه لنا جيرنى فى التنويم المغناطيسى هو تجاربه المتوالية على الكتابة الأوتوماتيكية التى قام بها بعض الأفراد الذين كانوا من قبل متأثرين ببعض الاقتراحات أثناء تنويمهم تنويماً مغناطيسياً . فلقد أُمر الخاضع ، مثلا ، عندما كان منوَّما بأن يقلب النار بعد ست دقائق من يقظته . وهو عند مايستيقظ لا يتذكر ما كان قد وُجِّه إليه من أمر أثناء النوم ، ولكن بينما هو مشغول بالمحادثة بعد اليقظة إذا به يكتب على لوحة : «يجب أن تقلب النار بعد ست دقائق» . ولقد أجريت تجارب عدة من هذا النوع ، وكلها تبين أن الإدراك فى حالات التنويم المغناطيسى يستقر فى أدنى بؤرة من بؤر الشعور متأثراً بالاقتراحات الموجهة أثناء النوم ثم يعبر عن نفسه بعد ذلك بحركات اضطرارية .

لذلك يشارك جيرنى كلا من جانيه وبينيه Binet, Janet فى فخر التدليل على وجود طبقات متعددة من الشعور فى الشخص الواحد . فالإدراك الإضافى ، كما يمكن أن يسمى بذلك ، يعبر عن نفسه بمثل الكتابة الأوتوماتيكية . ويعد هذا الاكتشاف عهداً جديداً فى علم النفس التجريبى ، وله مع ذلك أهمية عظمى . ولكن أعظم عمل قام به جيرنى هو كتابه المسمى خيالات الحياة . وهو مثل من أمثلة المجهود الجبار الذى قام به ، ويكفى أنه استقصى فيه ما يزيد على المائتين والستين كتابا حول الظواهر المسماة بالسحر . وهنا يحدث جيرنى أنه لم يجد معلومات مستقاة عن مصادرها الأصلية غير اعترافات الضحايا أنفسهم ، وهؤلاء ، طبعاً ، يمكن أن يقال فيهم إنهم كانوا معذبين أو مخبولين . وليس هذا إلا مثلاً واحداً من أمثلة الدقة والحيطة التى عمت الكتاب كله . تحدث جيرنى فى هذا الكتاب أيضاً عن حوالى سبعمائة حالة من حالات ظهور الخيالات والأشباح . وكان كثير منها حقاً ، بمعنى أنه كان منسجما مع بعض ماحدث من المصائب للشخص الذى ظهر خياله . وتفسير جيرنى لهذه الظاهرة هو أن عقل الشخص المصاب بتلك المصائب كان قادراً وقت إصابته بها على أن يؤثر فى عقل الشخص المتأثر بتلك الخيالات .

قد تسمى الخيالات المعتمدة على نظرية تجاوب الأفكار حقائق موضوعية ، ولو أنها ليست حقائق مادية . وليعرف إذا كانت هذه الخيالات ترجع إلى مجرد المصادفة لجأ جيرنى إلى عمل إحصائية لحالات ظهور الخيالات ، فاختبر مايزيد على خمسة وعشرين ألف شخص من أقطار مختلفة وفى أوقات مختلفة ليعرف هل كانوا متمتعين بصحة جيدة وكانوا فى حالة اليقظة حين سمعوا صوتا ، أو رأوا صورة ، أو أحسوا بشىء لايمكن أن يعرف مصدره المادى . ولقد كانت النتيجة على وجه عام ملاحظة أن كل رشيد من عشرة من الرشداء أخبر أنه أحس بتلك التجارب مرة على الأقل فى حياته وأن مقداراً كبيراً

من التجارب نفسها كان متفقاً فى الزمن مع بعض الحوادث التى حدثت فى أمكنة بعيدة . وأصبحت المشكلة بعد ذلك هكذا : هل تكرر مثل هذه الحوادث فيما يتعلق بالجزء الأخير منها أعظم من أن يكون مجرد مصادفة، فلا بد من أن يفترض أن هناك ارتباطا غير بين بين الحادثتين — ظهور الخيال وحدوث حادثة فى مكان بعيد ؟ أجاب سدجويك وزوجه عن هذا السؤال بناء على الإحصائية الإنكليزية التى سجلت سبع عشرة ألف حالة مع كثير من الحيطة والدقة التى لا تدع مجالا للشك. وكانت نتيجتهما أن حالات ظهور خيال الشخص يوم وفاته تكبر ٤٤٠ مرة عن أن تكون مجرد مصادفة . ولقد كان البرهان الذى استعملاه للوصول إلى هذا العدد فى غاية السهولة. وهو هذا : إذا لم يكن هناك إلا ارتباط مصادفى بين موت الشخص وظهور شبحه لشخص آخر بعيد المكان فإن احتمال موته يوم ظهور الشبح يكون مساوياً لاحتمال موته يوم وقوع أية حادثة أخرى من حوادث الطبيعة . ولكن احتمال موت الشخص فى يوم معين مرتبطاً بوقوع أية حادثة من حوادث الطبيعة يساوى احتمال موته فى أى يوم آخر ؛ وتبين إحصائية الوفيات للشعب أن ذلك الاحتمال هو واحد من تسع عشرة ألفا . فإذا كان ارتباط موت الشخص بظهور شبحه مسألة مصادفة ، كان يجب ألا يحدث أكثر من مرة فى كل تسع عشرة ألف حالة من حالات الموت . ولكنه يحصل فى الحقيقة (كما بينت الإحصائية) مرة فى كل ثلاث وأربعين حالة ؛ وهذا عدد يكبر ٤٤٠ مرة عن أن يكون مسألة مصادفة . وتصل الإحصائية الأمريكية ، التى اختبرت سبع آلاف من الحالات ، إلى نفس النتيجة . وكل ما يمكن أن يقال ضد هذه النتيجة هو أن المقدمات لا تزال فى غاية من القلة وأن الشبكة لم تنتشر انتشاراً كافياً ؛ فلا بد لنا من أن نحصل على نسبة متوسطة لا تقل عن أربع وعشرين ألفاً من الإجابات فى عملية الإحصاء . هذا كله حق لا مراء فيه ، ولو أنه بعيد التحقق ؛ وقد نجمع أربعا

وعشرين ألفاً من الإجابات الصحيحة ولكنها تكون عديمة الجدوى من حيث إنها قد تتكدس علينا فلا نجيد بحثها .

والذى يستحق الذكر بعد ذلك من أعمال الجمعية هو تلك الظاهرة المسماة بالوساطة المادية التى قام بها كل من زوج سدجويك وهدجسون ودافى . ولكن عمل هؤلاء كان كله مبطلا لدعاوى الوساطة التى اختبرت . ولقد تمكن دافى نفسه من إيجاد كتابة على اللوح مزورة . ولقد قام دافى بتجاربه هذه أمام طائفة ممتازة من العلماء ، وكان من بينهم هدجسون ، وهو الذى كان يستعرض مجموعة البيانات التى كانت تكتب على اللوح . ولكنه عجز هو ومن كان معه عن تبين الصفات الجوهرية لتلك التجارب . وهناك ملاحظة أخرى قام بها هدجسون حول ادعاءات مدام بلافاتسكى Madame Blavatsky فى الوساطة المادية . ولقد كان بيانه حولها مبطلا لدعواها ، ولو أن أصدقاءها كانوا يحاولون التخفيف من وقعه ، ولكنه ألصق بسمعتها ضرراً بالغاً سوف لاتمحوه الأيام أبداً .

قاست الوساطة المادية فى كل مظاهرها مقاساة شديدة من الجمعية . وآخر حالة اختبرتها الجمعية كانت حالة Eusapia Paladino المشهور ، فبعد أن حاز نجاحاً عظيما فى أوروبا ضبط متلبسا بالغش فى كمبردج ، ولهذا لم تستمع إليه الجمعية بعد ذلك ، لما يتحكم فيها من قوانين صارمة . وأما حالة ستينتون موسى ، التى دعمها مايرز بكثير من الأدلة التى لم تنشر ، فقد نجت من ذلك الحكم العام بالإخفاق ، ويظهر أنها تلزمنا بمايسميه Andrew Lange الاختيار بين المعجزة المادية والمعجزة الخلقية .

ولكن ليس لنا من خيار فى حالة زوجة بايبر Piper ؛ وهى ليست وساطة مادية بل وساطة غيبوبة . فلقد بحث غيبوبة تلك المرأة بحثاً طويلاً هدجسون وآخرون ، واقتنعوا جميعاً بأنها تُظهر فى غيبوبتها قوة خارقة للعادة . ولقد افترض

مبدئياً أن ذلك ناشئ عن تحكم الروح فيها . ولكن الحالة ليست من السهولة بحيث تسمح لنا بالحكم لها أو عليها الآن ، فينبغي أن نؤجل الحكم حتى نجد ماهو أكثر من ذلك المثل .

ومن الأعمال التجريبية المهمة لأعمال الجمعية مقال للآنسة س حول النظرة البلورية (Crystal vision) . كثير من الأشخاص الذين يركزون بصرهم على البلور يشعرون بشيء من الذهول ويرون بعض الرؤى . وكانت الآنسة س معرضة لهذا النوع إلى حد كبير ، وكانت مع ذلك من خيرة النقاد . فلقد أخبرت بكثير من الرؤى التي لا يمكن أن توصف إلا بأنها نوع من أنواع الإبصار المغناطيسي وبأخرى تعرفنا الشيء الكثير عن الأعمال اللاشعورية للعقل . فلما نظرت ذات يوم، مثلا، إلى المادة البلورية قبل تناول طعام الصباح قرأت مكتوباً يحدّث عن وفاة سيدة تعرفها ، ورأت تاريخ وفاتها وكل الحالات الأخرى المتعلقة بموتها واضحة هناك . ولما أدهشها هذا الخبر رجعت إلى جريدة اليوم الماضي فوجدت هناك بين أسماء الموتى نفس الكلمات التي قرأتها، وقرأت في نفس الصحيفة من الجريدة أيضا بعض الجمل التي تذكرت أنها قرأتها بالأمس . قد تعلل تلك الظاهرة بأن عينيها وقعتا من غير قصد على كلمات النعي ، ثم ذهبت تلك الكلمات إلى ركن من أركان ذاكرتها ، وظهرت خيالا مرئيا عند ماوجدت بعض التعديل في الشعور بسبب النظر إلى المادة البلورية .

وعند ما ننتقل من مسائل مبنية على الملاحظة إلى أخرى مبنية على قصص ، فإنا نجد مجموعة من قصص العفاريت وما شابهها التي غربلتها زوجة سدجويك وبحثها كل من مايرز وبودمور . إنها تمثل أعلى نوع من الأدب كتب حول قصص العفاريت . وأما من حيث النتيجة ، فلم تفيد زوجة سدجويك نفسها بحكم ما ، بينما يرى مايرز أن لهذه القصص شيئاً من الحقيقة ، وذلك لأنه يرى أن للمرء وجودا بعد الموت ، في حين أن بودمور لايشاركه في هذا الرأى .

ولابدلى الآن من أن أختتم حديثى حول أعمال الجمعية بذكر ما أراه أكثرها أهمية. وذلك هو مجموعة طويلة من المقالات التى كتبها مايرز حول مايسميه النفس « التى لاتدخل تحت الإدراك » (Subliminal self) أو مايصح لنا أن نسميه ما وراء دائرة الشعور من النفس . أدت بحوث مايرز العلمية حول التنويم المغناطيسى وحول الخيالات والأوهام وحول الكتابة الأوتوماتيكية وحول الوساطة وحول ما يتصل بهذه الظواهر به إلى عقيدة عبر عنها هو بالعبارات التالية :

« كل واحد منا فى الحقيقة وحدة نفسية أكثر انبساطا مما يعرف ، فهو شخصية لايمكن أن تعبر عن نفسها تعبيراً كاملاً فى أى ثوب مادى . وتظهر النفس من نفسها عن طريق الأعضاء ، ولكن هناك شيئا منها لايعبر عنه الحس أبداً ، وكأنا ننتظر دائماً قوة عضوية لتعبر عنه » .

ويشبه مايرز الشعور العادى بذلك الجزء الظاهر من طيف الشمس ، ويشبه جملة الشعور بذلك الطيف كله مضافة إليه أشعة الحرارة والأشعة الكيماوية . فتقوم الأجزاء اللامدركة بأعمال فسيولوجية ونفسية على مدى أوسع مما تقوم به أنفسنا العادية وذاكرتنا العادية . ونجد فى الناحية الدنيا منها الامتداد الفسيولوجى وعلاجات العقل وآثار الغيبوبة وما شاكلها ؛ ونجد فى الناحية العليا الاحتقانات الإدراكية العادية لحالات غيبوبة الوساطة . وسواء أشهدت التجارب المستقبلة لبحوث مايرز هذه أو شهدت عليها ، فإن لها الفخار فى أنها أول محاولة قام بها إنسان لبحث ظواهر الخيالات والتنويم المغناطيسى والكتابة الأوتوماتيكية وتعدد شخصية الفرد الواحد والوساطة على أنها ظواهر لشىء واحد . ولكن ينبغى أن نعرف أن كل قاعدة حول مثل هذه الموضوعات لابد أن تكون مؤقتة ، وعلى هذا الاعتبار ، قدم لنا مايرز قواعده . ولكننا قد بدأنا ندرك لأول مرة — والفضل فى ذلك له — ارتباط هذه

الظواهر بعضها ببعض ، وندرك أنها نظام من سلسلة واحـدة تبدأ من الحركات الأوتوماتيكية وترتفع تدريجياً إلى أعلى نوع من أنواع الخيالات الحسية . وبقطع النظر عن نتائجه التي وصل إليها، فإن تقعيده لها وتنظيمه إياهما أول خطوة جريئة نحو التغلب على كراهة العلم المحافظ لأن ينظر إليها .

يتوقف تقدير المرء للأدلة السماعية على تجاربه . فـكثير من الناس ، الذين اقتنعوا بوجود بعض أنواع من القوى غير الطبيعية ، يَضْحون أقل حذراً وحيطة بالنسبة للأدلة ، ويفتحون عقولهم لقبول فـكرة وجود كل ما هو فوق الطبيعة من قوى . وكل عقل ركب هـذا التركيب لابد أن يعتبر الجرى وراء التفاصيل الدقيقة والبحث عن قيمة كل دليل ـ تلك الأعمال التى تقوم بها الجمعية ـ عملا مملا لا يطاق . وقد يكون الأمر كذلك ؛ ولـكن يوجَد بعض أنواع من الأدب أكثر إملالا من البيانات حول ظهور الخيالات . وإذا أخذت تلك المسائل بنفسها كلا على حـــدة كحقائق منفصلا بعضها عن بعض ، فإنها تبدو خالية من المعنى ويفضل المرء ، حتى على فرض أنها حق ، أن يتجنبها ولا يجهد نفسه فى تعرفها . إذ تبدو له ، على هذا الأساس ، غرائب وعجائب لا يربطها قانون ولا تخضع لنواميس الطبيعة .

ومن هنا لا يكون الـكره الشديد الذى يحمله رجال العلم الخالص نحو هذه البحوث النفسية ونحـو باحثيها شيئاً طبيعياً فحسب ، ولـكنه يستحق أحياناً المدح والثناء . فـكل من يعجز عن أن يتصور فلـكا لتلك الشهب العقلية لابد له من أن يفترض أن بحوث مايرز وجيرنى ومن على شاكلتهما ليست إلا عملاً أخرق حـول أعاجيب لا تربطها رابطة ما . وهكذا يرجع العلم أخيراً إلى عادته من النفى والإنـكار ؛ وهكذا يقنع كثير من نقاد هذه الجمعية بافتراض أن البيانات حول هـذه الحوادث لابد أن

تكون خاطئة من بعض نواحيها . ولكن كلما رفض الإنسان حقيقة من الحقائق بسبب هذا النحو من الفروض قلت قيمة ذلك الفرض نفسه ، وقد ينتهى الأمر بأن يضيع المرء حقه فى الافتراض باستعماله له على هذا النحو ، ولو كان بادئاً (كما يفعل المعارضون لنظرية تجاوب الأفكار) بتلك القضية الاستقرائية النفسية التى تقول إن معارفنا لاتأتى إلا عن طريق الحواس . ولا بد أن نتذكر أيضاً أن إضعاف قوة فرضية من الفروض بذكر بيانات معارضة لا يتطلب البرهنة على حقائق تلك البيانات ببراهين يقينية . فقد يدور كثير من الإشاعات الغامضة المبهمة حول سمعة تاجر من التجار ولا يمكن اعتبار واحدة منها برهاناً على أنه غير مستقيم ، إلا أنها تضعف ، بلا مراء ، من قوة افتراض أنه مستقيم ؛ ومما يزيد فى أثرها هذا أن يكون بعضها مستقلاً عن بعض وأن تأتى عن مصادر مختلفة . والأدلة على تراسل الأفكار هى من هذا القبيل . فلا يبرهن أحدها على الآخر ، ولكن إذا أخذت معا انسجمت جزئيات بعضها مع بعض ، أو كان هناك ، كما يقال ، نظام فى تصرفها الجنونى . وهكذا يضيف كل واحد منها قيمة للبقية ، وتتضامن كلها أخيراً فى إزالة اعتقاد المحافظين من أن العقل لايعرف إلا ماجاءه عن طريق الحواس العادية .

ولكنه من الفقر أن تنحصر الحقيقة بين مجرد الفروض الشاهدة من ناحية وبين الفروض النافية من ناحية أخرى ، من غير أن يكون هناك من الحقائق ماينير ذلك الظلام الدامس . وإننى ، عند تحدثى عن الفروض المضعفة لقوة البيانات ، كنت متخذاً وجهة النظر العلمية الصارمة التى يتمسك بها غير المعتقدين . وأما وجهة نظرى أنا فهى غير ذلك . فإنى أعتقد أن الحقائق المثيرة قد جاءت فعلا ، وأن عقيدة المحافظين لم تضعف قيمة فروضها فحسب ولكن العقيدة نفسها قد زال كل مافيها من حقية . وإذا ماصح لى أن أستعمل لغة المنطقيين الفنية فإنى أقول إن القضية الكلية تنتقض بجزئية واحدة من جزئياتها .

وإذا أردت أن تبطل القضيـة القائلة كل غراب أسود فليس بالضرورى أن تبرهن على أن كل غراب ليس بالأسود ، بل يكفى أن تثبت أن هناك غراباً واحداً أبيض . وغرابى الأبيض هو زوجة پاپير . فى أثناء غيبوبة ذلك الوسـيط لم أتمكن من مقاومة عقيدتى فى أن ما أظهره ذلك الوسيط من معارف لايمكن أن يكون آتياً له من قبل لحواس أثناء اليقظة . لست أدرى مصدر تلك المعرفة ، وليس لدى ماأقترحه مصدراً لها ، ولـكن لامحيص لى من الاعتراف بوجودها . وعند ما أرجع إلى البقية الباقية من مسائل العفاريت وغيرها فلا يسعنى أن أتشرب بتلك الروح العلمية العنيفة النافية التى تفترض نظاما ينبغى أن تخضع له الطبيعة . بل على العكس ، إننى أشعر أن الأدلة ، على الرغم مما يبدو من ضعف كل منها على حدته ، تحمل معها قوة لايستهان بها إذا ما أخذت معاً . ولاينبغى أن يعزب عن البال أن العقل العلمى الصارم قد يتجاوز الهدف بسهولة وأن أول معنى للعلم هو أنه نظام غير متحيز . فافتراضه أن مجموعة من النتائج لابد أن يؤمن بها المرء ويصر عليها طيلة حياته حط من قدره ونزول به إلى مرتبة فرقة من الفرق .

نحن جميعاً ، علماء وغير علماء ، نميل نحو مستوى خاص من التصديق . ويميـل ذلك المستوى بهـذا الفرد إلى ناحية وبذاك إلى ناحية أخرى . ولا يصح لمن لم يعل مستواه بعد إلى ناحية أو أخرى أن يكون أول من يناصب العداء . ولقد وصلت أنا إلى ذلك المستوى من التصديق ، فقد حطمت عندى حالة الغيبوبة التى تحدثت عنها آنفا كل الحدود المعترف بها حدوداً لنظام الطبيعة . فالعلم الذى ينـكر إمكان وجود مثل هذه الظواهر لابد أن يسقط عندى إلى الرغام . وإنا لنرجو أن ينهض العلم ويكوّن من نفسه ثانية على أسس تسمح له بالاعتراف بوجود مثل هذه الظواهر . فالعلم كالحياة يعيش بفنائه . إذ تزيل الحقائق الجديدة من القواعد القديمة ، ثم تظهر نظريات حديثة

فتربط الجديد والقديم معا ، وتوفق بينهما بقانون يجمع الشتات .

وهنا توجـــد القيمة الحقيقيـة لجهود مايرز وجيرنى . إنهما جاهدا مخلصين ليخضعا القوانين الطبيعية القديمة لكل ما يمكن أن يوجد فى الطبيعـة من جهد وظواهر . واستعمل مايرز ذلك الطريق التـدرجى الذى أظهر العجائب فى يدى دارون . كان دارون كلما واجه بعض الحقائق التى بدت غريبة عن نظريته ، يحيطها ، كما أخبرنى زميل لى خبير ، بحقائق صغيرة ، كما يفعل قائد العجلة من وضع حصوات صغار حول مايعترض طريقه من صخر كبير ، وبذا يتخطى العقبة من غير أن تنقلب العجـلة . وهكذا فعل مايرز ، فبدأ بحقائق الشعور اللاإرادى ، واستمر متدرجاً حتى وصل إلى مسائل الأشباح والعفاريت ، ثم حاول أن يبين أن هـذه ليست إلا مظاهر متطرفة لحقيقـة واحدة مشتركة ، وهى أن الأجزاء اللاظاهرة من عقولنا قادرة تحت ظروف خاصة أن تؤثر وأن تتأثر بالأجزاء اللاظاهرة من العقول الأخرى. قد لا يكون هذا حقاً ، ولـكن لايمكن إنـكار أن شكله شـكل علمى ، لأن العلم يأخذ الحقيقة المعلومة ويحاول أن يعمم مداها .

وقد كنت فرداً من الأفراد المشتغلين فى عملية الإحصاء الأمريكية، وجمعت مئات من حالات ظهور الخيالات لأشخاص أصحاء. وقد جعلتنى النتائج أشعر بأن لنا جميعاً نفوساً كامنة قد تُغير فى أى وقت من الأوقات على حياتنا العادية ؛ وهى ليست فى ناحيتها الدنيا إلا مخزونا من مدركاتنا المنسية ، ولـكنا لانعرف شيئاً عنها فى ناحيتها العليا . فانظر ، مثلا ، إلى هذه المجموعة من الحالات : يتصف كثير من الأشخاص بقدرة وقت النوم على تقدير الزمن أدق من قدرتهم على تقديره وقت اليقظة . فتوقظهم فى الوقت الذى كان قد حدد من قبل وتعرفهم بنفس اللحظة التى يستيقظون فيها . وقد تقع لهم بعض الأوهام ـ كما فى حال سيدة أخبرتنى أنها رأت وقت يقظتها ساعة ورأت عقاربها دالة

على الوقت الصحيح . قد يكون هذا إحساساً بأن فترة فسيولوجية قد انقضت ، ولكن سمه ماشئت ، فهو لاشعورى .

وكثيراً ما يحتفظ لنا ذلك الشىء اللاشعورى ببعض التجارب التى لم نقصد أن ننتبه إليها . فمثلا، بينما كانت سيدة تتغدى فى مدينة اكتشفت أنها لاتحمل حافظة نقودها . فجاءها شعور فى الحال بما حدث لها أثناء تناول طعام الصباح من قيام وسماع لصوت الحافظة حين وقعت منها على الأرض . فلما ذهبت إلى البيت لم تجد شيئاً هناك ، ولكنها استدعت الخادمة وسألتها أين وضعت الحافظة. فأبرزتها الخادمة وقالت: « كيف عرفت مكانها ؟ إنك تركت الغرفة كأنك لاتعلمين أنها سقطت منك » . وقد يجعلنا ذلك الشىء من اللاشعور أيضا نتذكر مانسينا . وذلك كما حدث للسيدة التى تعودت على أخذ مسحوق حمض الصفصاف لتعالج به ماعندها من روماتزم فى العضلات . استيقظت تلك السيدة ذات يوم وهى تشكو من ألم فى عنقها، فاستخرجت ماتظنه المسحوق المعتاد، ووضعته فى كوب من الماء ، ولما قاربت أن تشربه شعرت بضربة على كتفها وبصوت يقول « اختبريها أولاً » . ولما اختبرت ما فى الكوب وجدت أنه مسحوق المورفين . والشرح الطبيعى لتلك الظاهرة هو أن ذاكرة مسحوق المورفين استيقظت فيها فى ذلك الوقت على هذا النحو الثائر . ويمكن أن تشرح الظاهرة الآتية أيضا بمثل هذا الشرح : تريد سيدة أن تدرك القطار الذى لم يبق على موعد قيامه إلا القليل ، ولكنها تبحث بجهد وبسرعة عن مفتاح حقيبة لها مغلقة ؛ فبينما هى مترددة بين صعود ونزول ، وبيدها جملة من المفاتيح التى لم تناسب الغلق، إذا بها تسمع صوتاً حقيقياً يقول « استعملى مفتاح صندوق الكيك » ، فلما استعملته فتح الحقيبة . فقد يكون هذا أيضاً نتيجة لتجارب منسية.

هذه الآثار ناشئة ، بلا مراء ، عن ميكانيكية الخيالات ؛ ولكن لا يمكن تحقيق المصدر بسهولة إذا ارتقينا فى سلسلة الحوادث قليلا . فمثلا تذهب سيدة ، فى

الصباح ، لترى حالة واحدة من خدامها أصابها المرض ليلاً ، فتندهش تلك السيدة حين ترى مكتوباً على باب غرفة نومها بحروف واضحة « جدرى » . وحين يحضر الطبيب يخبر أن المرض جدرى ؛ ومع ذلك تقول السيدة إنها لم تفكر فى أنه جدرى حتى رأته مسطوراً بحروف واضحة على الباب . ومن ذلك النوع أيضاً مسائل تحذيرية : وذلك كما حدث للشاب الذى كان جالساً فى سقيفة ، فبينما هو كذلك إذا به يسمع صوت أمه المتوفاة محذّراً له وقائلاً « اخرج سريعاً يا استيفن » ، فلما خرج انهارت السقيفة .

وعندما ننتقل إلى التجارب المتعلقة بأشخاص يظهرون وقت موتهم أو قبيله لأصدقاء لهم نائية ديارهم ، وعند ما نلتفت إلى كثير من الأحاديث التى تحصل وقت غيبوبة الوجد ، فإننا نرى عجباً ؛ وذلك لغزارتها ولما يستدعيه جلها من عقلية جبارة . وعلى الرغم من أن ميكانيكية هذه الظواهر العليا تشبه فى جملتها ميكانيكية الخيالات الأخرى التى تحدثنا عنها من قبل ، فإنه من غير المناسب أن نعتبرها كلها ناشئة عن العملية اللاشعورية للعقل . من الطبيعى أنه يمكننا أن نتخلص من كل مافى هذه المسائل من غموض وإبهام ، ونحكم على القصص جميعها بأنها ليست أهلاً لأن يوثق بها ؛ والواقع أنه ليس هناك من برهان على صحة كثير من هذه الوقائع . بيد أنه يمكن أن يقال ، على ضوء غيبوبة الوساطة التى برهن عليها بما لا يحتمل الشك ، إن هذه المسائل كلها من واد واحد ، وإنها جزئيات لنوع من الحقائق لانعرف بعد كل ماله من مدى .

يوجد اليوم فى الولايات المتحدة كثير من النظم الدقيقة ، التى تعيش على ضوء هذه التجارب ، والتى تتجاهل العلم الحديث ، كما لو كانت تعيش فى بوهيميا فى القرن

الثانى عشر الميلادى . إنها لاتهتم بالعلم لأن العلم لايهتم بما تجريه من تجارب . وعلى الرغم من أن العلم لايدل فى جوهره على عقائد ثابتة ، ولكن على نظم وقواعد ، فإن كثيراً من رجاله ومن غير رجاله يعتبره ممثلاً لمجموعة مقررة من العقائد . وذلك كاعتقاد أن نظام العالم نظام ميكانيكى كله ، وكاعتقاد أن كل ماليس بميكانيكى من الطرائق والشروح فهو طريق عقيم لايشرح شيئاً ؛ ولا تشذ الحياة الإنسانية عن ذلك . ولكن إذا ماتحكمت هذه العقلية الميكانيكية فى التفكير واعتبرت الطريق الوحيد له ، فإنها تؤدى إلى إلغاء طرائق التفكير الأخرى التى لعبت أكبر دور فى تاريخ الإنسان . فالتفكير الدينى ، والتفكير الخلق ، والخيال الشعرى ، والتفكير الغائى ، والتفكير العاطفى والانفعالى ، وكل مايصفه الإنسان بأنه أفكار شخصية ، ليميزه بذلك عن الآراء الآلية الميكانيكية، أو كل مايصفه بأنه أفكار رومانتيكية ، — كل هذه الأفكار كانت ولا تزال خارجة عن الدائرة العلمية . وهى ، فى نظر الميكانيكية العقلية ، حديث خرافة . إذ أنها ترى أن الشخصية صورة كاذبة ليس لها مدلول أو حقيقة . وترى أن القول بأن الأشياء خلقت للإنسان قول كاذب ليس له من مبرر . وترى أن عقائد آبائنا فى الوحى ، وفى العرافة ، وفى ظهور الخيالات ،وفى المعجزات والكرامات التى تظهر على أيدى الأنبياء والأولياء ، وفى الاستجابة للدعوات ، وفى العلوم الإلهامية وفى كل ماشابه ذلك ، مجموعة من الخيالات التى لا أصل لها .

يعترف كلنا ، طبعاً ، بأن التطرف الذى قد يؤدى إليه الرأى الرومانتيكى الشخصى فى الحياة ، الذى لم تهذبه النظرة العقلية العامة ، يكون مخيفاً مرعباً . وليست الشراسة الموجودة فى أواسط أفريقيا إلا نتيجة لرومانتيكية لم تهذب . فلا محيص من الخوف

من الرومانتيكية ومن كره أن تكون نظاماً عالمياً شاملاً . وهذا هو السر فى أن رجال العلم يكرهون ذلك النوع الرومانتيكى فى الحياة ، وينبذون كل ماتلوّن به من آراء . ذلك معنى نقدره للعلم كل التقدير ؛ ونحن مدينون له فعلا بالشىء الكثير ، فله منا الحمد والثناء الجميل . ولكن ينبغى أن يعلم أن جمعية البحوث النفسانية قد برهنت برهاناً يقيناً على شىء يتبينه القارىء المعتدل : ألا وهو أن الأحكام ، التى حكم بها علماء اليوم على أسلافهم الماضيين ، من الجنون المحض ، ومن تفضيل الخطأ على الصواب بدون مبرر ، ومن التمسك بالخرافات من غير سبب واضح ، أحكام لاتجد لها مبرراً وليس فيها من دقة . إذ لا مراء فى أن للنظرة الرومانتيكية الشخصية فى الحياة أصولا أخرى غير الرغبة فى تنمية قوة الخيال وغير التشبث والعناد القلبيين . إنها تستمد حياتها من الحقائق التجريبية ؛ وليس من العسير الآن على المتمسك بها أن يجمع مجموعة كبيرة من البيانات التى تعاضدها ، مثل هاته البيانات التى تجمعها جمعية البحوث النفسية .

تتعلق هذه البيانات كلها بتجارب حقيقية للأفراد ، وتشترك هذه التجارب فى ثلاثة أوصاف . فتتصف جميعها ، أولاً ، بأنها غرائب لاتبدو مرتبطه بشىء آخر ، وليس من السهولة التحكم فيها . وتحتاج كلها ، ثانياً ، إلى شخص غريب (شاذ) لتقع على يديه . وهى كلها ذات أهمية ، ثالثاً ، ولكن أهميتها ترجع للأفراد الذين تتعلق هى بهم خاصة . ولا مراء فى أنها تعضد النظرة الشخصية الرومانتيكية . يجد ذلك من نفسه كل هؤلاء الذين يحبون أن ينتبهوا إليها وكل هؤلاء الذين يخضعون لها ويجربونها . والواقع أن هؤلاء الأخيرين لايجدونها مؤيدة لنظرتهم الشخصية إلى الحياة فحسب ، ولكنهم يجدون أنفسهم مضطرين منطقياً كذلك لأن يروها دليلاً قاطعاً على صحة تلك النظرة . ولقد تعرفت ، أثناء مساهمتى الضئيلة فى أعمال الجمعية ،

بعدد وفير من الناس الذين أصبحوا يعتبرون كلمة « علم » كلمة توبيخ وشتم ،لأسباب أعرفها الآن وأقدرها . وإن عدم تحمل العلم لمثل هذه الظواهر التى نبحثها ، وإنكاره القاطع لوجودها أولأهميتها (اللهم إلا لاعتبارها دليلاً على حماقة من يشغل نفسه بها)، هما اللذان باعدا بينه وبين عطف الإنسان عليه . وإننى أعترف بأن استحقاق الجميعة للحمد والثناء لايعتمد ، بوجه خاص ، إلا على نوع من الرسالة العاطفية . فهى التى أعادت للتاريخ استمراره ؛ وهى التى بينت أن هناك أسساً منطقية لما كان يعتبر من قبل خرافة وضلالا ؛ وهى التى عالجت الشجة العنيفة التى شج بها العلم عالم الإنسان حين نظر إليه نظرة قصيرة .

وسأذهب الآن خطوة أبعد من هذا كله وأقول : إذا ما نظرنا من موقفنا اليوم إلى المراحل الغابرة من التفكير الإنسانى ، سواء أكان تفكيراً علمياً أم تفكيراً دينياً ، فإننا نعجب كيف أن هذا العالم ، الذى يبدو لنا اليوم عظيما لايحصره عقل ولا تحيط به قوانا ، كان قد رآه بعض الأفراد صغيراً زهيداً . وإن نظريات كل من ديكارتDescarets ، ونيوتون Newton ، حول العالم ، ونظريات الماديين فى القرن الغابر حوله ، وكذا نظرية بريدجووتر Bridgwater المعاصر حوله ، التى كانت معتبرة فى غاية من القوة والدقة ، قد أصبحت اليوم منظوراً إليها بالشك ودالة على قصر فى النظر ؛ وكذا بدأت نظريات أخرى فى موضوعات علمية شتى ، مثل نظريه ليل Lyell وفرادى Faraday ، ومل Mill ، وداروين Darwin ، تظهر بمظهر الطفولة والسذاجة بعد ما كان لها من سلطان فى الدوائر العلمية . فهل من المنتظر ، إذن ، أن ينجو العلم المعاصر من هـــذا المصير العام ، ويسلم من نقد الأحفاد له ومن اعتبار عقول رجاله عقولاً جامدة قديمة ؟ قد يكون من الحماقة افتراض سلامته من هذا المصير . ولكن إذا ماصح لنا أن نحكم عليه اليوم مستندين فى أحكامنا إلى القياس على الماضى ، فإنا

نقول: لايصبح علمنا الحاضر من الطراز القديم بسبب فقدانه كلا من الروح والمبادئ العلمية ، فهذان متوفران فيه ؛ ولكنه قد يغدو كذلك بسبب تركه بعض الحقائق خارج اعتباره وبسبب تجاهله ما قد يكون للظواهر المراد شرحها من نظم ومدى . ومن البديهى أن العلم يعنى بوضع القواعد والنظم ؛ وتلك هى روحه ومبادئه ، وليس فيها مايمنعه من النجاح فى بحث عالم تكون القوى الشخصية فيه المبدأ الذى تنشأ عنه كل الآثار الأخرى . ولا مراء فى أن حياتنا الشخصية هى الصورة الوحيدة التى تواجهنا مباشرة ، وهى التجارب الوحيدة التى نجربها . ويحدثنا شيوخنا من الفلاسفة أن النسق الذى تجرى عليه أفكارنا هو نسق شخصياتنا ، وأن كل نسق آخر تجريد منه . وأما إنكار العلم للشخصية ، وأما اعتقاده الجازم بأن عالمنا هذا عالم غير شخصى فى طبيعته وجوهره ، فقد يراه الأعقاب خللا ونقصا ، ومن ثم يهزأون مما فاخرنا به من علم ، ويحكمون على عالم هـــذا العلم بأنه عالَم قصير النظر وخلو من الاتساق والشمول .